دراسة في صور الفساد وأسبابه وكيفية الإصلاح من منظور قرآني

أ.د/ محمد محمد عثمان
كلية الاداب – جامعة سوهاج

مقدمة :

لا يكاد يخلو مجتمع بشري اليوم على وجه البسيطة من الفساد والمفسدين .. تلك حقيقة يجب التسليم بها والتسليم لها، فقد انتشر الفساد بكافة أشكاله وألوانه المعنوي منها المادي: فمن فساد في المعتقدات إلى فساد في العبادات، ومن فساد في الجانب الأدبي والفكري إلى فساد في الجانب المادي والبيئي، ومن فساد في الأخلاق والقيم إلى فساد في السلوكيات والمعاملات ، حتى وصل الأمر –والعياذ بالله- في بعض الأحيان إلى الخروج عن مقتضي الفطرة السليمة السوية التي فطر الله الناس عليها.

لقد صدق القرآن الكريم إذ أشار إلى ظهور الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس مؤكداً عقاب الله تعالى للمفسدين في الأرض لعلهم يرجعون عن فسادهم، وفي ذلك يقول تعالى:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾(١).

إن المتأمل لحالنا اليوم وحال زماننا وما ظهر فيه من الآفات والفتن وما حصل فيه من انفتاح كبير على الدنيا وزخرفها حتى ظن أهلها أنهم قادرون عليها أو مخلدون فيها ... إن المتأمل لذلك ليشعر بالرهبة والاشتقاق والخوف الشديد من مظاهر وعواقب هذه الحال.

---

(١) سورة الروم : آية ٤١.

إذ قد قست منا القلوب وتحجرت العيون هجر كتاب الله وكثر القلق وغلب لهم والحزن، وفشت الفواحش والمظالم، وظهرت صور صارخة من الحسد والبغضاء والفرقة والخلاف.

فقد أسانا فهم ديننا الذي هو سر تميزنا وبقائنا، فشغلنا بالشكل عن الجوهر وبالقلب، وبالمبنى عن المعنى، فأفسدنا دنيانا وأخرانا.

ومن هناك كانت الحاجة ماسة إلى إعادة النظر في أوضاعنا ، وتحديد موقفنا من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ؛ فإنه لاتجاه لنا ولا رفعة إلى في الاهتداء بهديهما والانقياد لهما، فكان لزاماً على من بيده أدني صوت للتوجيه أن يحدو الركب إلى جادة الطريق، وأن يلفت الأنظار والأذهان والقلوب إلى حقائق القرآن الذي هو مصدر الحقائق.

من هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة التي بين أيدينا كمحاولة للوقوف على أشكال الفساد في الأرض وأسبابه وطرق علاجه – كما رسمها القرآن الكريم، لنستهدي بهديه ونتبصر منهاجه القويم، لعل النفوس تستيقظ ولعل القلوب تخشع:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (١).

هيكل الدراسة:

موضوع هذه الدراسة هو قضية ظهور الفساد في الأرض، وسيكن تناولها – بعون الله تعالى – من خلال هذه المحاور:

(١) سورة الحديد: الآية ١٦.

أولا : حديث القرآن عن ظهور الفساد في البر والبحر، وأقوال العلماء في هذا الصدد.

ثانيا: أشكال الفساد وصوره في واقعنا المعاصر، وأبرزها:

١- الفساد في العقائد.

٢- الفساد في العبادات.

٣- الفساد في الأخلاق والمعاملات.

٤- الفساد الفكري.

٥- الفاسد البيئي.

ثالثا: أسباب ظهور الفساد في الأرض، وعلاقتها بسنن الله في الخلق كما بينها الإمام ابن القيم في كتابه، "زاد المعاد".

رابعا : طرق العلاج وكيفية الإصلاح.

obeikandl.com

(أولا) حديث القرآن عن ظهور الفساد في الأرض وأقوال العلماء في هذا الصدد

حدثنا القرآن الكريم عن ظهور الفساد في البر والبحر وذلك بسبب المعاصي التي تقترفها البشر، ليصيبهم بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوها في الدنيا كي يتوبوا إلى الله سبحانه – ويرجعوا عن المعاص فتصلح أحوالهم وتسقيم أمورهم، فقال تعالى:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (١)

والقرآن الكريم في هذا السياق يقرر تلك الحقائق:

(اولا): ظهور الفساد في البر والبحر:-

وقد فسر العلماء ظهور الفساد في البر والبحر على ثلاثة أقوال:

(أولها): ظهر الفساد في البر والبحر أي ظهرت المعاصي والذنوب، **وقال شيخ المفسرين الطبري:**"ظهور الفساد أي ظهور المعصية في بر الأرض وبحرها بكسب أيدي الناس ما نهاهم الله عنه"(٢).

وقال القرطبي:"وقيل الفساد: المعاصي وقطع السبيل والظلم، أي صار هذا العمل مانعا من الزرع والعمارات والتجارات"(٣).

وقال الألوسي:" ظهر الفساد في البر والبحر: أي ظهرت المعاصي في البر والبحر، بكسب

---

(١) سورة الروم ٤١ ، ٤٢.
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري حـ٢٠، ص١٠٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج١٤، ص٤٠.

الناس إياها وفعلهم لها، ومعنى الآية: ظهرت المعاصي في البر والبحر فحبس الله عنهما الغيث، وأغلى سعرهم، ليذيقهم عقاب بعض الذين عملوا"(١).

وقال أبو حيان في البحر والمحيط: " الفساد فيه قولان: أحدهما ظهرت المعصية من قطع السبيل والظلم، فهذا هو الفساد على الحقيقة"(٢)

وقال الشوكاني في فتح القدير: " ظهور الفساد : قيل: كثرة المعاصي وقطع السبل والظلم"(٣).

وقال في الكشاف: " ويجوز أن يكون الفساد: ظهور الشر والمعاصي بكسب الناس ذلك"(٤).

وقد أورد هذا القول أيضا صاحب الظلال إذ يقول:" ظهر الفساد: فساد قلوب الناس وعقائدهم وأعمالهم، وهو يوقع الفساد في الأرض ويملؤها براً وبحراً"(٥).

(والقول الثاني) ظهر الفساد في البر والبحر، أي عم الجدب والقحط وقلت الأرزاق ومحقت البركة والخيرات.

قال الإمام ابن كثير الدمشقي لدى تعرضه لهذه الآيات : " عدم تنفيذ الشريعة وكثرة المعاصي وتعطيل إقامة الحدود وعدم إقامة العدل يمحق البركة ولنقص الأرزاق والخيرات والثمرات، فظهور الفساد : محق البركة والقحط"(٦).

وقال القرطبي: ظهر الفساد: قيل: كساد الأسعار وقلة المعاش"(٧).

---

(١) تفسير الألوسي: ١٥/ ٣٧٧.
(٢) البحر المحيط ٨٨/٩.
(٣) فتح القدير ٤٧٥/٥.
(٤) الكشاف ٢٥٩/٥.
(٥) في ظلال القرآن ٤٩٣/٥.
(٦) تفسر ابن كثير ٣١٩/٦.
(٧) تفسير القرطبي ١٤/ ٤٠.

وقال البغوي: " الفساد : قحط المطر وقلة النبات" (١).

وقال الألوسي: " الفساد : قيل: الجدب والموت وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الصيادين ومحق البركات من كل شئ وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار"(٢).

وقال في البحر المحيط: " وقيل: ظهر الفساد: ظهر قلة العشب وغلاء السعر "(٣) وقال الشوكاني في فتح القدير: " واختلفوا في معنى الفساد المذكور فقيل هو القحط وعدم النبات ونقصان الرزق وكنى الخوف ونحو ذلك..."(٤).

ولما تعرض الزمخشري لهذه الآية قال: "الفساد: الجدب والقحط وقلة الريع والزراعات والربح في التجارات، ووقوع الموتان في الناس والدواب وكثرة الحرق والغرق، وإخفاق الصيادين ومحق البركات من كل شئ وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار، وعن ابن عباس: ظهر الفساد في البر والبحر: أجريت الأرض: وانقطعت مادة البحر"(٥).

وعلى هذا المعنى أكد الثعالبي إذ يقول: " وظهور الفساد: ارتفاع البركات ووقوع الرزايا ووقوع الفتن وتغلب العدو، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر، قال ابن عباس: الفساد في البحر: انقطاع صيده بذنوب بني آدم ..."(٦).

وذلك لأن المعاصي والذنوب والفسق سبب في هلاك الحرث والنسل ومحق البركات ومنع نزولها من السماء، وسبب في غضب الله ونكاله، وتلك سنة الله تعالى التي تطالعها في مثل قوله تعالى:

---

(١) البغوي ٢٧٤/٦.
(٢) روح المعاني ٣٧٧/١٥.
(٣) البحر المحيط ٨٨/٩.
(٤) فتح القدير ٤٧٥/٥.
(٥) الكشاف ٢٥٩/٥.
(٦) الثعالبي ١٨٩/٣.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾(١)

فالإيمان والتقوى – كما تقرر الآية – سبب في عموم البركات والخيرات وعمارة الأرض ودفع الفساد عنها، كما أن المعاصي والذنوب سبب في الرزايا ونقص الأرزاق، ونجد مثل هذا المعنى أيضا في قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾(٢).

إذن فظهور الفساد في البر والبحر على التفسير الأول معناه: ظهور المعاصي والذنوب وانتشار الظلم وعدم تنفيذ شرع الله، وعلى التفسير الثاني معناه: الجدب والقحط وقلة الأرزاق ومحق البركة. ولكل تفسير منهما وجه، يقول الألوسي في ذلك:" وعلى التفسير الأول يكون المعنى: ظهر المعاصي في البر والبحر بكسب الناس والأرزاق بسبب ذنوب العباد وأما قوله تعالى:

﴿... لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

على التفسير الأول: فاللام مجاز على معنى أن ظهور المعاصي بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله تعالى وبال أعمالهم، ويكون المعنى **على التفسير الثاني**: أن الله تعالى قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها جزاء بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة لعلهم يرجعون عما هم عليه"(٣).

وقال الشوكاني معقباً على هذين التفسيرين:" فالأول باعتبار ما كان راجعاً إلى أفعال بني آدم من معاصيهم واقترافهم السيئات وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم، والثاني باعتبار ما

(١) سورة الأعراف: الآية ٩٦.
(٢) سورة الشورى: الآية ٣٠.
(٣) الألوسي، المصدر السابق.

كان راجعاً إلى ما هو من جهة الله سبحانه وتعالى بسبب ذنوب العباد كالقحط وكثرة الخوف ومحق البركة ونقصان الثبات والثمار."(١)

(أما القول الثالث في تفسير معنى ظهور الفساد في البر والبحر) فقد أورده بعض المفسرين كالشوكاني والقرطبي ورجحه الرازي، وهو أن معنى ظهور الفساد ظهور الشرك في الأرض، قال في فتح القدير:"ظهر الفساد: قيل: الشرك، قال به السدي وهو أعظم الفساد لكن لا دليل على أنه المراد بخصوصه."(٢)، وقد حكاه القرطبي عن قتادة والسدي."(٣)

قال الرازي:"ظهر الفساد: الشرك، واعلم أن كل فساد يكن فهو بسبب الشركة، لكن الشرك قد يكون في العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقا وعصياناً، وذلك لأن: المعصية فعل لا يكون لله بل يكون للنفس، فالفاسق مشرك بالله بفعله وغاية ما في الباب أن الشرك بالفعل لا يوجب الخلود في النار لأن أهل المرء قلبه ولسانه فإذا لم يوجد منهما إلا التوحيد يزول الشرك البدني بسببهما."(٤)

(ثانيا): ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها بأعمال الناس من طاعة ومعصية:

إن المصائب والابتلاءات ونقص النعم التي ينعم الله بها على الناس إنما سببها معصية الله تبارك وتعالى، وهذه الحقيقة وردت في كثير من الآيات، يقول تعالى:

﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾(٥)

فما أصاب الخلق من مصائب الخلق من مصائب فبما جنت أيديهم من ذنوب ومعاصي ويعفو الله عز وجل عن كثير من هذه الذنوب، وفي الحديث الذي أخرجه

(١) الشوكاني: المصدر السابق.
(٢) الشوكاني، المصدر نفسه.
(٣) انظر القرطبي، الجامع لتأويل آي القرآن ١٤/ ٤٠.
(٤) مفاتيح الغيب ١٢/ ٢٤٦.
(٥) سورة الشورى: الآية ٣٠.

أبو عيسى الترمذي قال ﷺ :"لا يصيب عبداً نكبه فما فوقها أو دونا إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر"(١).

وهناك بعض المعاصي يكون أثرها أشد من غيرها في نزول النقم وحصول البلاء ويدل على ذلك ما ورد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما حيث قال ﷺ :" يا معشر المهاجرين خمس إن ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن – لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقضوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلى سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم"(٢).

وإذا نظرنا في هذه المعاصي والعقوبات المرتبة عليها، علمنا أن سنة الله في خلقه أن يعامل العاصي بنقيض قصده، فمتى طلب شيئاً من حرام أو متى طلب شهوة أو لذة في معصية الله تبارك وتعالى إلا عاقبه الله تعالى بضدها، فمن يفعل الفاحشة ويجاهر بها يبتليه الله تعالى بإتلاف بدنه بالأسقام والأوجاع الخطيرة، وهذا ملموس في وقتنا الحاضر العياذ بالله. من ينقص المكيال والميزان يبتليه الله بنقص في الأموال والثمرات، وحين يجوز الأغنياء على الفقراء ويمنعوهم حقهم في أموالهم يمنع الله عنهم القطر من السماء فينقص الرزق وتمحق البركة حتى تزول النعم التي في أيديهم لمنعهم زكاة أموالهم.

---

(١) سنن الترمذي ٧٠/١٢، حديث رقم (٣٥٦١).
(٢) ابن ماجه ١٧٥/١٢، رقم (٤١٥٥)، وأبو نعيم في الحلية ٣٣٣/٨، وصححه الألباني: الصحيحة ١٦٧/١.

وفي المقابل نجد أن جزاء العمل الصالح والطاعة وتقوى الله الحياة الطيبة في الأرض يقول تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ... ﴾(١)

ويصف صاحب الظلال تلك الحياة الطيبة بقله: "فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعاية وستره ورضاه، وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة وسكن البيوت ومودات القلوب ، وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة ، وأن الحياة الطيبة في الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات فما أكرمه من جزاء."(٢).

ومن جزاء العمل الصالح في الدنيا أيضا نما النبات ورغد العيش ووفرة الرزق يقول تعالى:

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ... ﴾(٣)

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: "أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعا حسنا."(٤).

ويدل على ذلك أيضا قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾(٥).

---

(١) النحل: من الآية ٩٧.
(٢) في ظلال القرآن ٤٨٨/٤.
(٣) الأعراف: من الآية ٥٨.
(٤) تفسير ابن كثير ٤٣٠/٣.
(٥) الأعراف: من الآية ٩٦.

(ثالثا) تأكيد الآيات على أن المعاصي والذنوب تفضي إلى غضب الله ونكاله

فبعد أن قررت الآيات ظهور الفساد ي البر والبحر بما كسبته أيدي العباد وما اقترفوه من المعاصي والذنوب، أكدت على تسبب المعاصي لغضب الله ونكاله، حيث أمرهم بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاقهم سوء.

قال الألوسي:"وقوله تعالى:

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ...﴾ (١)

لتأكيد تسبب المعاصي لغضب الله تعلى حيث أمروا بأن يسير فينظروا ما أصاب الأمم قبلهم ويتحققوا صدق ما تقدم"(٢)، قال صاحب الظلال:" وفيه تحذيرهم أن يصيبهم ما أصاب المشركين من قبلهم وهم يعرفون عاقبة الكثيرين منهم ويرونها في آثارهم حين يسيرون في الأرض ويمرون بهذه الآثار"(٣).

وإذا علمنا أن الله شديد العقاب، يؤاخذ بالذنب ويعاقب به، فلن نعلم حقيقة هذه الصفة إلا إذا عرفنا آثارها في الخلق والناس

ومن نظر في آثار السابقين من الأمم البائدة عرف هذه الحقيقة ورأي كيف أهلك الله الظالمين وأنزل بهم بأسه الذي لا يرد، فهذه قرى قوم لوط التي قلبها الله على أهلها عند الصباح وذلك بشناعة أفعالهم ومعاصيهم وأمر عليها مطراً خبيثاً لا تزال آثاره باقية حتى اليوم وليس البحر الميت بالأردن إلا من آثار ذلك المطر الذي أنزله الله تعالى انتقاماً من قوم لوط وكذلك الحجارة التي حصدتهم عن آخرهم يقول تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ (٤)

---

(١) سورة الروم : من الآية ٤٢.
(٢) روح المعاني ٣٧٧/١٥.
(٣) الظلال ٤٩٣/٥.
(٤) سورة النجم: ٥٣ ــ ٥٤.

فقد تواطئوا على الانحراف وما كانوا يقيمون عليه من الفواحش المعاصي.

التي استحقوا بها عذاب الله، فكان عقابهم:

﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾(١).

ولما طغى قوم نوح وأبوا إلا عبادة الأصنام بعد أن ينزل نوح عليه السلام كل الوسائل معهم وأعلنوا عن معصية الله بقولهم:

﴿ ... وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾(٢)

وهن صدر الحكم من الله الجبار

﴿ مِّمَّا خَطِيٰٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾(٣).

وكذا قوم هود وهم عاد كانوا جبابرة في الأرض قال لهم نبيهم

﴿ ... وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾(٤)

فتمادوا في طغيانهم واغتروا بقوتهم ونسوا الله الذي أعطاهم هذه القوة وأنه بيده القوة كلها

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ... ﴾(٥)

فلما بادروا الله بالمعصية أصدر الله حكمه عليهم:

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ

---

(١) سورة الحجر : الآية ٧٤.
(٢) سورة نوح : من الآية ٢٣.
(٣) سورة نوح : الآية ٢٥.
(٤) سورة الأعراف : الآية ٦٩.
(٥) سورة فصلت : من الآية ١٥.

وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ... ﴾(١)

ومثل ذلك قوم صالح وقوم شعيب أهلكهم الله تعالى بما أفسدوا في البر والبحر بما كسبوه من الأعراض عن منهج رب العالمين، وقد نبهنا القرآن على دراسة تاريخ. هذه الأمم والنظر في عواقبها ليقول لنا أن الأمة التي تكثر معاصيها وتطغى لابد وأن تلك ولا ينجو إلا من آمن بالله تعالى.

وفي تاريخ الأمم أيضا مما نبهنا القرآن إليه ما يذكرنا أن المعاصي سبب نزول لعنة الله على العباد وزوال نعمه عنهم، قال جل شأنه:

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾(٢)

وقال تعالى:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾(٣)

وهكذا فإن الله تعالى يأمرنا أن نتأمل في تاريخ السابقين من الأمم التي أهلكها الله تعالى، فإن التاريخ كتاب عظيم الفائدة لمن أراد ان يقرأه ويستفيد من حوادثه، وحديث القرآن عن الأمم السابقة والرسل المرسلين إليهم يبين لنا سنن الله تعالى في خلقه، ومن

(١) سورة الحاقة : من الآيات ٦ – ٧.
(٢) سورة سبأ : الآيات ١٥ – ١٧.
(٣) سورة النحل : الآية ١١٢.

خلال هذه السنن نعرق عوامل البناء والأمن والاستقرار وعوامل الهدم والخوف والسقوط وأن هذه السنن الربانية مرتبطة بالطاعة والمعصية والإيمان والكفر والتوحيد والشرك.

(رابعا) رحمة الله بالعباد

ومن رحمة الله تعالى بأمة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم أن أخذه العباد بالعقوبات والبلايا ونزع البركات وكثرة الآفات هو بعض جزاء أعمالهم قال تعالى:

﴿... لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ...﴾(١)

وإلا فلو أخذهم بجميع ما كسبوا ما ترك عليه من دابة قال تعالى:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ.... ﴾(٢)

قال في تفسير السعدي: " وهذه العقوبات هي بعض جزاء أعمال العباد، وذلك ليعلم العباد أنه المجازي على الأعمال فعجل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا لعلهم يرجعون عن أعمالهم التي أدت إلى فساد دنياهم وأخراهم، فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم فسبحان من أنعم ببلائه وتفضل بعقوبته"(٣).

وحين يبتلى الله تعالى العباد بتلك العقوبات إنما يرجعوا إلى الطريق القويم ويعزموا على مقاومة الفساد ويثوبوا إلى العمل الصالح، قال الثعالبي لدى تعرضه لهذا المقطع عن الآية: "ليذيقهم عاقبة بعض ما عملوا ويعفوا عن كثير لعلهم يتوبون يراجعون بصائرهم في طاعة ربهم"(٤).

فمن رحمة الله بالعباد أن عقابه لهم في الدنيا لا يبلغ مداه وأنه سبحانه لا يؤاخذهم بجميع ذنوبهم وأنه لا يأخذهم بسنة عامة تبيدهم وتهلكهم وذلك في أمة محمد ﷺ ويستدل

---

(١) سورة الروم : من الآية ٤١.
(٢) سورة النحل : من الآية ٦١.
(٣) السعدي ٢٩١/١.
(٤) الثعالبي ١٨٩/٣.

على ذلك من حديثي وثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:"إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأصفر وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال يا محمد: إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا"(١).

أَشْكَالُ الفَسَادِ وَأَلْوَانُهُ

(توطئة):

الفساد في اللغة: خروج الشئ عن حد الاعتدال والصلاح، قال في القاموس المحيط:"فسد : ضد صلح، والفساد : أخذ المال ظلما والمفسدة : ضد المصلحة وتفاسدوا:قطعوا أرحامهم"(٢).

وقال صاحب معجم الصحاح في اللغة:"المفسدة: خلاف المصلحة، والاستفساد: خلاف الاستصلاح"(٣).

وقال في لسان العرب:"الفساد: نقيض الصلاح. وتفاسد القوم: قطعوا الأرحام"(٤).

ويتجسد الفساد في عدم قيام الإنسان بتحقيق رسالته التي من أجلها أوجده الله في هذه الحياة واستخلفه فيها، وهذه الرسالة تتمثل في عبادة الخالق سبحانه وتعالى باتباع ما أمر واجتناب ما نهى

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٣١) وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) القاموس المحيط الفيروز آبادي، ٣٠٧/١.
(٣) الصحاح في اللغة، الجوهري، ٤٤/٢.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، ٣٣٥/٣.

وبانعدام فهم الإنسان لهذه الرسالة تفسد عنده المعتقدات وتنحرف العبادات وتنحط الأخلاق والسلوكيات والمعاملات وتصنيع القيم والحقوق وتفسد الأنظمة والمجتمعات ويفشل الإنسان في القيام بواجباته في هذه الحياة فيظل تائها حائراً فيها حتى يخرج منها صفر اليدين من الحسنات مثقلا بالذنوب والتبعات ، وقد ضيع كلا من دنياه وأخراه سدى وليس هناك إفساد أخطر من هذا الفساد، ذلك لأن الإنسان مخلوق عاقل مكرم مكلف ذو إرادة مرة، فإذا صلحت أرادته صلحت حياته وصلح مجتمعه، وإذا فسدت إرادته فسدت حياته ومجتمعه وملأ الأرض من حوله فساداً وظلماً وجوراً ومن صور هذا الفساد ما يلي:

١- فساد الاعتقاد

والذي يظهر في العديد من صور الكفر أو الشرك بالله تعالى التي تعم مختلف جنبات الأرض اليوم، والشرك بالله – بكافة صوره – غمط لأول حقوق الله تعالى على العباد وإنكار لأعظم حقائق هذا الوجود ومفسدة للإنسان أي مفسدة، لأن المخلوق إذا غفل عن حقيقة عبوديته وتوحيده لإلهه وخالقه فسدت عقيدته وبفسادها يفسد فكره وأرادته وسلوكه وعلاقاته بغيره ويفسد مجتمعه وبفساد المجتمعات تفسد الأمم ولا تعرف للأمن والسعادة طعماً لخروجها عن منهج الله تعالى وأوامره ولفقدانها الصلة الحقيقية بالله وهدايته للإنسان في الأمور التي لا يمكن للإنسان أن يضع لنفسه فيها أي ضوابط صحيحة وهي أمور الدين والاعتقاد وحقيقة الوجود.

ومما يدلل على ذلك أن دعاة الحق والإيمان حينما يدعون الناس في كل العصور – إلى منهج الله تعالى فإنما يدعونهم إلى الدواء الذي يشفي الإنسانية بإذن الله تعالى من كل داء، إنه الذي يستأصل جميع الأمراض من قلوب العباد ويمتنع أسباب الانهيار التي يتعرض لها الأفراد أو تتعرض لها الأمم.

ومن مظاهر فساد الاعتقاد في واقع الأمة أننا أصبحنا نربط إيماننا بالمادة، فإن العالم اليوم أصبح يخشى الانهيار وأصبح العالم ينظر إلى مسألة الانهيار وأسباب سقوط الأمم إلا من زاوية واحدة فقط وهي الزاوية المادية أو الاقتصادية وهذا من ضعف وفساد الاعتقاد ذلك أن كل أمر من الأمور يجب أن يعرض على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ حتى نعرف قيمة إيماننا وحقيقته وأنه هو الذي به تنصلح دنيانا وأخرانا،وأما المقاييس والمعايير التي يقيس بها الماديون والشيوعيون والملاحدة فليست بحجة ولا عبرة عند من يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومن مظاهر فساد الاعتقاد في وقتنا الحاضر تقديم حب الدنيا والهوى على حب الله ورسوله، وهذا هو أصل المعاصي، فإن المحبة الصادقة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة ولهذا قال تعالى:

(قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ...) (١)

وقال تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...﴾ (٢)

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ :" ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود إلى

(١) سورة التوبة: ٢٤.
(٢) آل عمران: ٣١.

الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار"[1].

فمن أحب الله تعالى ورسوله ﷺ محبة صادقة من قلبه أوجب له ذلك بقلبه أن يحب ما يحبه الله ورسوله ويكره ما يكرهه الله ورسوله وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض فإن عمل الجوارح شيئا يخالف ذلك يدل على عدم محبته الواجبة.

إن جميع المعاصي إنما تنشأ من تقديم هوى الإنسان ونفسه على محبة الله ورسوله وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع الشريف.

ومن فاسد الاعتقاد في واقعنا المعاصر الاعتقاد في المخلوقين والاعتماد على الأسباب دون التوكل على الله النافع أنصار الذي بيده الأمر كله، فإن الأمور كلها لا تتم إلا بمشيئة الله وتقديره وإن من أركان العقيدة الإسلامية أن يعتقد المرء أن الأمور تجرى مقادير الله تعالى: وأن الاستعانة بـ"سبحانه" والتوكل عليه فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا مانع له من الشر والضر إلا بعصمة الله، وكذلك أسباب الرزق لا تحصل ولا تتم إلا بالسعي بالطلب مع التوكل على الله. قال ﷺ: " لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً"[2]، فوصف ﷺ المتوكل بوصفين: السعي في طلب الرزق والاعتماد على مسبب الأسباب سبحانه وتعالى.

إن العبد الذي يعلم أنه فقير إلى به في كل أحواله ري به أن يتوكل عليه في كل المقاصد؛ فكيف لا يستعين بمولاه من علم أنه عاجز مضطر إليه، وكيف لا يطلب قضاء الحوائج منه من علم وتيقن أن الأمور كلها بيده، وكيف لا يلجأ إلهي في كل الأمور من علم بسعة غناه ووافر جوده، وكيف لا يطمئن قلبه إلى تدبيره من استيقن أنه أرحم من الوالدة

(١) صحيح البخاري ١/٣٤، حديث (١٦)، ومسحيح مسلم ١/٢٠٢، حديث (١٧٤).
(٢) سنن ابن ماجة ١٢/ ٣٥٢ حديث (٤٣٠٣).

بولدها، وكيف لا يرضي بتقديره من علم أنه حكيم في كل ما قضاه، وقد علمنا الحسيب الوكيل – سبحانه وتعالى – كيفق نتضرع إليه بالتوكل عليه فقال تعالى:

﴿... رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(١).

ومن الفساد العقائدي في زماننا اتباع البدع، فإن كل عمل ليس له أصل في الشرع ولم يقم عليه دليل فهو من ابتداع المضلين، وإن الله – تبارك وتعالى – قد أكمل لنا ديننا وأمرنا باتباعه والتمسك به، فقال تعالى:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ...﴾(٢).

وقال ﷺ: " من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"(٣) وللبدعة مفاسد عظيمة منها أن صاحب البدعة يرى أن الدين ناقص فهو يرى أن يكمله ببدعته، ومنها أن أصحاب البد يزهدون في السنن وتفتر عزائمهم عن العمل بها وينشطون في البدع، فلذلك نجدهم ينفقون أموالهم وينصبون أبدانهم ويضيعون أوقاتهم في إحياء البدع، ومنها أن البدع تورث في الناس التفرق والاختلاف كل فريق يرى أن ما هو عليه أفضل مما عليه الآخر، أما السنن فإنها تجمع الناس وتؤلف بين قلوبهم فيكونون أخوة متحابين على منهج واحد ودين واحد ومن مفاسد البدع أيضا أنها تورث الاستكبار عن الحق، فالمبتدع إذا دعى إلى الحق لا يمتثل ويتمسك ببدعته يدافع عنها.

لقد كان النبي ﷺ يحذر من البدع أشد التحذير فكان يقول في خطبه:" أما بعد فإن خير

(١) الممتحنة : ٤.
(٢) سورة الأنعام : ١٥٣.
(٣) صحيح البخاري ٨/٨٠، وصحيح مسلم ١١/٢٠٤.

الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة"(١) فكل عمل يجب أن يكون موافقاً لما شرعه النبي ﷺ . وما لم يشرعه فهو بدعة مردودة.

٢- الفساد في العبادات

ويظهر ذلك في العددي من العبادات الموضوعة المنتشرة في مختلف جنبات الأرض.الله تعالى يجب أن يعبد بما أمر ولأن المفهوم اللغوي للعبادة هو الخضوع الكامل لله تعالى بالطاعة لأوامره واجتنابه نواهيه، والإنسان مجبول بفطرته على عبادة الله بما أمر وإذا لم يهتد الإنسان إلى العبادة الصحيحة لله سول له الشيطان أضاطاً من العبادة المصطنعة يملأ بها حاجته الفطرية إلى الدين وإلى العبادة.

ولا يمكن لعاقل أن يتصور إمكانية أن يصطنع لنفسه نمطاً من العبادة أو يصطنعها له إنسان مثله ثم يتخيل قبول الله تعالى لتلك العبادة الموضوعة.

وغالبية أهل الأرض اليوم واقعون في هذا الشرك من شراك الشيطان التي إذا وقع الإنسان فيها فقد صلته بالله تعالى ويفقدها يفقد إنسانيته ويتحول إلى كيان فاسد مفسد مدمر لذاته ولأهله ومجتمعه يعبد ذاته وأهواءه وشهواته ورغائبه أو يعبد الشيطان وفي كل هذا لا يمكن له أن يحيا حياة سرية على الأرض أو أن يكون مستخلفاً صالحا فيها.

ومن صور الفساد في العبادات -إلى جانب العبادات الموضوعة من اختراع البشر- عدم الاهتمام بما شرع الله تعالى من عبادات، وتلك العبادات التي لم يشرعها الله تعالى لاحتياجه للبشر؛ لأنه سبحانه وتعالى غني عن العالمين وإنما شرعها -سبحانه- لاحتياج العباد إليه، فالعبادات التي أمر الله بها كلها صلاح للأبدان وصلاح للقلوب وصلاح للأفراد والأمم.

---

(١) صحيح مسلم ٤٠٣/٥، وسنن أبي داود ١٣/ ٢٢٧، وسنن ١٩٦/١٠.

فقد شرع سبحانه وتعالى الصلوات الخمس التي تطهر القلوب من الذنوب، وهي صلة بين المخلوقين والخالق تبارك وتعالى: تلك الصلة التي تظهر ظاهره وباطنة؛ فحين يريد الصلاة فيأتي إليها بطهارة الباطن والظاهر ويقف بين يدي ربه خاشعاً خاضعاً لا يلتفت بوجهه ولا بقلبه ويتدبر ما يقوله ربه من أوامر نواهي، فالمصلي في صلاته متنقل في رياض العبادة ما بين قيام وركوع وسجود وقراءة وذكر ودعاء ، قلبه عند ربه في هذه الأحوال، فأي نعيم أعظم من هذا النعيم وأي حال أطيب من هذه الحال، ولهذا كانت الصلاة قرة عين المؤمنين وروضة أنس المشتاقين وحياة قلوب الذاكرين فتثمر نتائجها العظيمة ويخرج المصلي بقلب غير قلبه الذي دخل به فيها فيجد نفسه محباً للمعروف كارهاً للمنكر ويتحقق له قول الله تعالى:

﴿...إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ...﴾(١).

إن عبادة هذا شأنها وعملا هذه نتائجه لجدير بنا أن نسعى لتحقيقه والعناية به، وأن نجعله نصب أعيننا وحديث نفوسنا حتى نصلح أحوالنا فإن في الصلاة صلاح الدنيا والآخرة.

ولعظم الصلاة حذر الله تعالى وحذر رسوله ﷺ من تركها أو التساهل في أمرها، وأخبر ﷺ أن بين الرجل والكفر ترك الصلاة(٢)، وهي علامة تميز المؤمن عن المنافق.

من الفساد في العبادات ضياع فائدة الصلاة الحقيقية وروحها وهو الخشوع والطمأنينة ، فإن كثيرا من المصلين لا يعرفون فائدة الصلاة الحقيقية ولا يقدرونها قدرها ولا نوراً لقلوبهم، ترى كثيراً منهم ينقرون الصلاة نقر الديكة لا يطمئنون فيها، وهؤلاء لا

(١) سورة العنكبوت : ٤٥.
(٢) أخرجه الإمام مسلم، باب بيان إطلاق الكفر على من ترك الصلاة، حديث (٢٥٦).

صلاة لهم، لأن الطمأنينة في الصلاة ركن من أركانها، ويدل على ذلك ما قاله النبي ﷺ للرجل الذي كان لا يطمئن في صلاته :"ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ"(١).

ومن الفساد الذي انتشر تفريط بعض الناس في العبادات المشروعة كالحج والزكاة فإن الكثير من الناس في زماننا هذا يتهاونون في أداء فريضة الحج تلك الفريضة الثابتة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين عليها إجماعا قطعيا.

وكيف تطيب نفس المسلم أن يترك الحج مع قدرته عليه بما له وبدنه، وهو يعلم أنه من فرائض الإسلام وأركانه وكيف يبخل بالمال على نفسه في أداء تلك الفريضة وهو ينفق الكثير من ماله فيما تهواه نفسه، وكيف يوفر لا يتعب نفسه في الحج وهو يرهق نفسه في أمور دنياه، وكيف يتثاقل فريضة الحجة وهو لا يجب في العمر سوى مرة واحدة، وكيف يتراخي ويؤخر أداءه وهو لا يدري لعله لا يستطيع الوصول إليه بعد عامه.

ومن أخطر صور الفساد في العبادات عدم إخراج زكاة المال التي هي حق الفقراء والمساكين وذلك شائع في مجتمعاتنا ومن أكبر أسباب ظهور الفساد فيها؛ ذلك أن منع زكاة المال عاقبته نزع بركة الأموال وهلاك الأمم وذلها، فإن الزكاة قرينة الصلاة في محكم القرآن، وجاء في منعها والبخل بها الوعيد بالنيران. قال تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ... ﴾(٢)

وقال تعالى:

﴿... وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

(١) أخرجه الإمام البخاري، باب أمر النبي الذي لا يتم ركوعه بالإعادة، حديث (٧٩٣).
(٢) سورة آل عمران: ١٨٠.

فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(١).

وقد توعدت السنة أيضا من يكنزون الأموال دون إخراج زكاتها، فورد عن النبي ﷺ أنه قال:" من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثّل له شجاعاً أقرع – وهي الحية الخالي رأسها من الشعر لكثرة سمها- له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهمزتيه – يعني شدقيه – يقول أنا مالك أنا كنزك"، وفي حديث آخر:" ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمى عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد".

كما أن زكاة المال لا تنفع لا تبرأ منها الذمة حتى توضع في الموضع الذي وضعها الله فيه مثل ذوى الحاجة من الفقراء والمساكين والغارين الذين عليهم ديون لا يستطيعون وفائها، فلا تحل الزكاة لغني ولا لقوى مكتسب وذلك حتى يتحقق التكافل الاجتماعي الذي شرعت الزكاة لأجله.

٣- الفساد في أخلاق والمعاملات .. نظرة على واقعنا المعاصر

عندما تفسد العقائد والعبادات تفسد الأخلاق والمعاملات وهذا ما نراه في واقعنا المعاصر متمثلا في فساد الذمم والخداع والكذب ونقض العهود والعقود والمواثيق وأكل أموال الناس بالباطل، وتطفيف الموازين المكاييل والغش في الصناعات والتجارات

(١) سورة التوبة : ٣٤ – ٣٥.

وانتشار السرقات والنهب والسلب والرشوة والمحسوبية والربا وشيوع المظالم والاستبداد وانتشار الفواحش واندلاع الفتن والاعتداء على الأعراض والأموال والممتلكات اختلاط الأنساب، ونصرة الباطل وأهل ومحاربة الحق وأهله، وفساد الأحكام والتصورات والقيم والنظم، وإفساد العقول وضياع القدوة الحسنة وغياب الشفافية وغير ذلك من صور الفساد الأخلاقي والسلوكي وهو من أبشع صور الفساد في الأرض وهذه الصور من أكثر ما يستوجب غضب الله عزوجل - ويستجلب نزول عقابه.

إن الفساد الأخلاقي والسلوكي الذي تعرضنا لبعض صوره إنما يهبط بالإنسانية من أوج التكريم والرقي الإنساني إلى حضيض المهانة والقول إلى ما هو دون مستوى الحيوان الأعجم؛ لأن الحيوان لا يخرج بسلوكه عن الفطرة التي فطره الله تعالى عليها، وليس أول على ذلك من إباحة الشذوذ الجنسي في البلاد الغربية وإعطاء كافة الحقوق الاجتماعية والمالية للشواذ فينشأ هؤلاء الشواذ وهم يألفون الفساد والانحراف ولا يرون فيه شيئاً يشين ولعمري إن هذا من أحط صور الفساد الأخلاقي في الأرض.

وفي المجتمعات الإسلامية غابت كثير من أخلاق الإسلام، وضاعت حقوق العباد وانتشرت صور غريبة من المعاصي والفسوق والفحش والسباب كما انتشرت الأمراض الأخلاقية القلبية كالحسد والغل والحقد والكراهية والبغضاء.

لقد غاب عن المسلمين اليوم أن يتمثلوا أخلاق نبيهم ﷺ الذي جاءت دعته لإتمام مكارم الأخلاق، فقد كان ﷺ حليما رفيقا " أدركه أعرابي فجذبه جذبا شديداً وكان عليه برد غليظ الحاشية فأثرت حاشيته في عاتق رسول الله ﷺ من شدة جذب الأعرابي فقال: يا محمد مُرْلي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك ثم أمر له

بعطاء"(١)

وخدمه أنس بن مالك رضي الله عنه عشر سنين في الحضر والسفر فما قال له أف قط"(٢)، وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً فلم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا سباباً ولا لعانا وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس عن ذلك"(٣)، وكان ﷺ أجود الناس؛ فما سئل عن شئ إلا أعطاه، فقد جاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة"(٤)، وكان أزهد الناس في الدنيا فقد خير بين أن يعيش في الدنيا ما شاء الله أن يعيش وبين لقاء ربه فاختار لقاء ربه، وكان يتلوى من الجوع ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه ومات ولم يخلف ديناراً ولا درهما ولا شاة كما روت كتب السنة.

وإذن فما أجور المسلمين اليوم بالتأسي بأخلاق نبيهم ﷺ وأن يكون ديدنهم مقابلة السيئة بالحسنة، ذلك أن كل إساءة تقابل بالإحسان سيكون له الأثر الطيب في محو أثرها، ومعالجة ما أحدثته من صدع جفاء، ومن أجل ذلك وجه رب العزة عباده إلى اتباع السيئة الحسنة فقال عز من قائل:

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ... ﴾(٥)

قال أيضا:

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ... ﴾(٦)

---

(١) صحيح البخاري ٢٦٢/١١.
(٢) صحيح البخاري ١٦١/٢٠.
(٣) صحيح البخاري ٣٠٦/٢٢، وسنن أبي داود ٣٧/١٤.
(٤) صحيح مسلم ٢٦٩/١٥.
(٥) سورة المؤمنون : ٩٦.
(٦) سورة فصلت : ٣٤.

فإذا أحسن المرء إلى من أساء إليه قادته تلك الحسنة إلى مصادقاته ومحبته حتى يصير كأنه ولي لك حميم، ومقابلة السيئة بالحسنة مرتبة عظيمة لا يرتقي إليها من عباد الله إلا من امتلك زمام نفسه وقسرها على ذلك، إذ فيه خيره وسعادته في العاجلة والآجلة وصلاح مجتمعه، فإن الذي يخالف هواه ويأخذ بتوجيه مولاه ويقابل السيئة بالحسنة يدخل في إطار من ارتفع به رب العزة إذ يقول: في معرض المدح والإشادة

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ... ﴾(١)

أي ما يرتقي إلى هذه المرتبة العظيمة إلا من صبر على كظم الغيظ واحتمال المكروه

﴿... وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾(٢)

أي ذو حظ وافر من السعادة في الدنيا والآخرة.

وعلى العكس من صاحب هذا الخلق الكريم نجد الفاحش البذئ الذي يتقيه الناس لفحشه وسلاطه لسانه وطعنه فيهم وهمزة ولمزة لهم. إنه لا يستقيم له أمر ولا يصفو له راد ولا ينطوي على حبه قلب أو ينهض رعاية مصالحه أو الذب عنه أحد فيخسر بذلك دنياه إذ يقطع مرحلة من الحياة منبوذاً من المجتمع بالإضافة إلى خسارة عقباه وآخرته: إذ قد ورد في الحديث من الوعيد الصارخ لهذا الصنف من الناس إذ يقول ﷺ:"إن من شرار الخلق منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه"(٣).

وفي حديث آخر يشرح المصطفى ﷺ واقع المفلس الحقيقي وهو من فسدت أخلاقه، فيقول:"المفلس من أمتي من جاء يوم القيامة بصلاة وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن

(١) سورة فصلت : ٣٥.
(٢) سورة فصلت: ٣٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤٨٦/١٦، والترمذي في سننه ٤/٨.

فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار"(١).

ومن الفساد الأخلاقي الذي تعاني منه أمتنا خيانة الأمانة بكافة أشكالها وضياع الذمم والتساهل في المسئوليات ومراعاة المحسوبيات فترتب على ذلك إسناد المهام إلى من ليس أهلها وذلك من علامات الساعة كما أخرج البخاري في الصحيح من أن النبي ﷺ كان في مجلس يحدث ، فقال بعضهم: سمع ما قال، فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه، قال: أين السائل عن الساعة، قال : ها أنا يا رسول الله ، قال: فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها قال: إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"(٢).

ومن صور ضاع الأمانة عدم الحفاظ على حقوق الناس المالية وغير المالية وضياع الأمانة في البيع والشراء والإجارة والاستئجار فشاعت صور سيئة من التطفيف في البيع والنقص في المكاييل والموازين أو زيادة الثمن أو كتمان عيب السلعة أو التدليس في مواصفاتها، وكذا في الوكالات ، فظهر صور من خيانة الوكيل لموكله فيبيع سلعة موكله بأقل من قيمتها محاباة للمشتري أو تواطئاً معه مقابل رشوة.

إن كل مسئول في موقعه فهو مؤتمن على مسئوليته هذه وواجب عليه أن يقوم بالأمانة فيها.

وإن من الأمانة ما يتصل بالتعليم والتدريس، فعلى القائمين على ذلك من واضعي المناهج والمقررات أن يراعوا الأمانة في ذلك باختيار المناهج الصالحة والمدرسين

(١) أخرجه مسلم في الصحيح ١٦/٤٦٢، وسنن الترمذي ٩/٢٧٠.
(٢) أخرجه البخاري في الصحيح ١/١١٤، وأحمد في المسند من مسند أبي هريرة ١٨/٤٩٤.

والصالحين المصلحين، وأن يعملوا على تثقيف الطلاب علمياً وعملياً دينان ودنيا عبارة وخلقاً. وإن من الأمانة في ذلك حفظ الاختيار من التهاون به والتلاعب ووضع الأسئلة بحيث تكون في مستوى الطلاب عقليا وفكرياً وعلمياً.

ومن أكبر صور الفساد الأخلاقي في واقعنا قطع الأرحام وبغياب جو الحميمية العائلية وعدم وصل الأقارب والإنة الجانب لهم، وشيوع التقاطع بين الأقارب لأتفه الأسباب، وهذه الأمور -لعمرو الله- من أشد أسباب الفساد في الأرض ومما يستوجب لعنة الله وغضبه، وذلك بنص الآية الكريمة

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾(١).

وقد تكفل الله تعالى للرحم بأن يقطع من قطعها حتى رضيت بذلك وأعلنته فهي متعلقة بالعرش تقول من قطعني قطعه الله، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:" خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوق الرحمن فقال لها مه قالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك قالت بلى يا رب قال فذاك لك"، قال أبو هريرة اقرءوا إن شئتم

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾"(٢)

بل إن قطيعة الرحمن من أسباب الحرمان من الجنة فعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:"لا يدخل الجنة قاطع"(٣) يعني قاطع رحم.

---

(١) سورة محمد ٢٢.
(٢) أخرجه البخاري باب من وصل وصله الله ١٢٢/١٦، ومسلم باب صلة الرحم ٣٩٢/١٦.
(٣) أخرجه البخاري، باب إثم القاطع ٧٦/٢٠.

لذلك فإن من أقل حقوق الأقارب القيام بما يجب لهم من صلة، وإلانة الجانب ولقائهم بوجه باش وصدر منشرح وبذل المحبة والإكرام والاحترام وزيارتهم، في صحتهم تودرا وعودتهم في مرضهم اختفاءً وسؤالا وبذل ما يجب بذله من نفقة وسداد حاجات.

ومن صور الفساد الأخلاق أيضا تلك الجريمة التي يؤدي فشوها إلى اختلال نظام البشرية بأكمله وتلك هي شهادة الزور.

لقد أضحت شهادة الزور تهدد أمتنا ومجتمعاتنا أموالنا وبيوتنا ودمائنا فقد خربت بيوتا عامرة وأزهقت أرواحاً برئية وأهدرت حقوقاً واضحة فما فشت في أية إلا وسادت فيها الفوضي وتحكمت فيها الأهواء، لذا فقد حذرنا منها رسول الله ﷺ بقوله: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس" يقول الراوي: وكان النبي ﷺ متكئا فجلس ثم قال:" ألا وشهادة الزور وكان النبي ﷺ متكئا فجلس ثم قال:" ألا وشهادة الزور ألا وقول ا لزور، ما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت"(١).

لقد أمرنا الحق جل وعلا بالقسط وبأن تكون الشهادة بحق مراداً بها وجه الله تعالى وأن نأتي بالشهادة على وجهها فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا...﴾(٢).

إن الشهادة بالحق لا يؤديها إلا أصحاب النفوس العالية المتنزهة عن الدنيا وحطامها الفاني، المتطلعة إلى رضا الرحمن ونيل ما أعد من النعيم والجنان.

---

(١) أخرجه مسلم،باب بيان الكبائر، ٣٢٠/١، الترمذي في السنن ٦٧/٩.
(٢) سورة النساء ١٣٥.

كما أن التأخر عن أداء شهادة الحق إثم كبير قال تعالى:

﴿... وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ...﴾(١)

وإن القلب هو مصدر الفساد والصلاح فإذا أثم القلب فماذا يبقي بعد ذلك.

ومن مؤشرات ظهور الفساد الأخلاقي في البر والبحر تفشي الرشوة في مجتمعاتنا وهي من أخطر الأمراض الأخلاقية التي تنخر في قيمنا وتقلب موازين العدالة وتضيع الأمانة.

والرشوة هي بذل المال للتوصل به إلى باطل إما بإعطاء الراشي ما ليس من حقه أو إعفائه ما هو حق عليه، يقول تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٢)

وقال تعالى في ذم اليهود:

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ...﴾(٣)

والرشوة من السحت كما فسر الآية به عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه مجاهد الحسن وقتادة"(٤)، وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي" وفي لفظ: "لعنة الله على الراشي والمرتشي"(٥)، وهذا إما خبر من النبي ﷺ أو دعاء على الراشي والمرتشي بلعنة الله وهي الرد والإبعاد من رحمته عز وجل.

إن لعنة الله ورسوله لا تكون إلا على أمر عظيم ومنكر كبير، وهي من أكبر الفساد في الأرض؛ لأن بها تغيير حكم الله وتضييع حقوق العباد وإثبات ما هو باطل ونفي ما هو حق

(١) سورة البقرة ٢٨٣.
(٢) سورة البقرة ١٨٨.
(٣) سورة المائدة ٤٢.
(٤) انظر تفسير الطبري ٣١٩/١٠.
(٥) سنن أبي داود ٤٤٤/١٠، وسنن الترمذي ٣١٥/٥.

وتضييع للأمانة وإمانة للقيمة والأخلاق.

ومن صور الرشوة في مجتمعاتنا الرشوة في الوظائف ، فيقدم من أجلها من لا يكون مناسبا لها ، وغيره يكون أحق منه بشغل الوظيفة، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال:"من استعمل رجلا من عصابة وفهيم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين"(١).

وتكون الرشوة أيضا في المشاريع الإنشائية ، فكم من المشاريع التي تعرض للمناقصة ويبذل بعض المتقدمين الرشاوي لنيلها، ويوكل تنفيذ المشروع له مع أن غيره أقدر على ذلك وأتقن عملا.

وتكون الرشوة في التحقيقات الجنائية ، فيتساهل المحققون في التحقيق من أجل الرشوة ، وتكون في أمور كثيرة غير ذلك يبيع فيها المرتشي دينه من أجل حطام الدنيا ويعرض نفسه لنقمة الله وغضبه وانتقامه ويسعى بمجتمعه إلى الفساد والهلاك وبأمته إلى الانهيار.

وهذه بعض صور الفساد الأخلاقي في مجتمعاتنا وعقوباتها علّ ذلك أن يكون رادعاً عن الفساد والإفساد ودافعا للصلاح والإصلاح تذكيراً لمن كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد.

٤- الفساد الفكري

وهذا اللون من يبدو من خلال تدمير القيم وتشويه المبادئ ويكون أكثر المفسرين جرأة وتبجحاً ووقاحة وتحدياً للأحاسيس واستفزازاً للمشاعرهم أولئك الذين يقدمون أعمالا فكرية أو أدبية أو فنية بأي شكل من أشكال التعبير يتعرضون فيها للثوابت الإيمانية للأمة

(١) المستدرك على الصحيحين ٣٤٥/١٦.

ومقدساتها بالتشكيك والتطاويل وبث الشبهات، تارة باسم "ديموقراطية" الرأي وأخرى باسم حرية التعبير.

كما يظهر هذا اللون الخطير من الفساد في الحرب على مبادئ العقيدة الإسلامية بهدف هدمها من أسسها تشكيك المسلمين في دينهم ومن ذلك ظهور (البهائية) تلك البدعة التي نشرها نفر من الخارجين على الإسلام وقد حمل وزرها رجل يدعي (ميرزا على محمد الشيرازي) وقد دعت البهائية إلى مبادئ وأفكار كلها منافية لحقيقة الإسلام منها القول بالحلول بما يفهم منه أن الله – كما يزعمون – يظهر في شخص الباب تعالى الله عن ذلك علو كبيراً، ومنها إنكار يوم القيامة، وادعاء بعضهم نزول الوحي عليهم وادعائهم أن بدعتهم هذه بتطوراتها منذ نشأت فقد نسخت جميع الأديان والشرائع،ومن البدع التي ظهرت أيضا بهدف هدم مبادئ العقيدة الإسلامية ما عرف باسم (القاديانية).

ومن صور الفساد الفكري الذي نعاني منه أيضا ظهور بعض المفاهيم والمصطلحات المغلوطة في أصلها كالحداثة والتقدمية ، فنجد أن تلك المفاهيم تطلق على إتباع الغرب وتقليده والسير على منهجه، بينما يطلق البعض على المحافظة على أسس ديننا والتمسك بهديه والرجوع إلى تعاليم القرآن، يسمون ذلك رجعية، ولم يفقه هؤلاء أن القرآن جاء لإخراج الناس من الظلمات إلى النور قال تعالى:

﴿... كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ...﴾(١).

إلا أن أقدح فساد فكري رأته البشرية اليوم هو التطاول على خير الأنام ﷺ ونشر صور السخرية منه – بأبي وهو وأمي – ولكن الله عز وجل مظهر دينه ومعلن كلمته وناصر رسوله عليه الصلاة والسلام:

(١) سورة إبراهيم ١.

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ (١)

ولم تزد هذه السخرية المؤمنين إلا فداء لنبيهم ﷺ وتمسكاً بسنته الغراء وهذا ما يؤكد قوله تعالى:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢)

ومن صور الفساد الفكري في واقعنا ذلك الفساد الناجم عن الغزو الوافد إلينا عن طريق القنوات الفضائية ذلك الغزو الذي لا تشارك فهي الطائرات ولا القنابل والمدرعات ولكن نتائجه أخطر من ذلك، إذ يهدر أوقات الشباب ويضيعها ويغزو عقيدتهم ويشوه المفاهيم الإسلامية لديهم، ويهدم الأخلاق الكريمة والعادات الحسنة والشمائل الطيبة.

- الفساد البيئي

من دلائل الإعجاز العلمي للقرآن التي اكتشفت مؤخراً حديث القرآن عن الفساد البيئي في الأرض، فقد عقد علماء البيئة مؤتمراً في فرنسا عن أخطار الفساد البيئي (مؤتمر باريس) فبراير ٢٠٠٧م) وخرجوا بثلاث نتائج اتفق عليها أكثر من خمسمائة عالم من علماء البيئة من مختلف دول العالم، وهذه النتائج التي توصل إليها المؤتمر لم تخرج عما أشارت إليه الآية الكريمة"

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٣)

كانت نتائج ذلك المؤتمر كما يلي:

١- لقد بدأت نسبة التلوث تتجاوز حدوداً لم يسبق لها مثيل من قبل في تاريخ

(١) سورة الحجر: ٩٥.
(٢) سورة الصف: ٨.
(٣) سورة الروم: ٤١.

البشرية، وهذا يؤدي إلى إفساد البيئة في البر والبحر، ففي البر هناك فساد في التربة، وفساد في المياه الجوفية وتلوثها، وفساد في النباتات ،حيث اختل التوازن النباتي على اليابسة، وفي البحر بدأت الكتل الجليدية في الذوبان بسبب ارتفاع درجة حرارة الجو وتضررت الكائنات البحرية نتيجة لذلك، وزاد غاز الكربون في الغلاف الجوي بشكل أصبح ينذر بهلاك مروع لأرضنا وأن درجة حرارة الأرض سترتفع ثلاث درجات خلال هذا القرن إن لم تتخذ الإجراءات المناسبة.

٢- اتفق المؤتمرون على أن الإنسان هو المسئول عن هذا الإفساد للبيئة فهذا الفساد البيئي الذي تعاني الأرض منه ما هو إلا من جراء الحروب والإفراط في استخدام التكنولوجيا دون مراعاة البيئة وقوانينها وإخلال الإنسان بالتوازن البيئي الطبيعي.

٣- وجه العلماء في نهاية اجتماعهم نداء عاجلاً وإنذاراً لجميع دول العالم أن يتخذوا الإجراءات السريعة والمناسبة للحد من التلوث لتلافي الأخطار القادمة الناتجة عن التلوث الكبير في الجو والبحر واليابسة"(١).

بقد تحدث القرآن في الآية السابقة عن هذه النتائج الثلاث بكل دقة في مقاطع الآية المتعاقبة فقال تعالى:

١- ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ...﴾ قد فسر العلماء – في بعض أقوالهم – الفساد بالجدب أي القحط والتصحر(٢) وهو ما يحدث اليوم على الأرض، حيث يؤكد العلماء أن المساحة الخضراء تتقلص بفعل البشر وسوف تزداد الأراضي الجافة

(١) تقرير صادر عن الأمم المتحدة، مؤتمر باريس للبيئة، ٢ فبراير ٢٠٠٧.
(٢) انظر المبحث الأول لهذه الدراسة، أقوال العلماء وتفسير ظهور الفساد في البر والبحر.

والمتصحرة في الأعوام القادمة بسبب زيادة التلوث ويؤكدون أيضا الفساد البيئي يشمل البر والبحر كما نصت على ذلك الآية القرآنية.

٢- ﴿...بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ...﴾ وقد أكد العلماء أن التلوث والفساد البيئي في البر والبحر إنما نتج عن تدخل الإنسان، فالناس هم المسئولون عن ذلك الفساد البيئي الخطير في الأرض.

٣- قال تعالى:﴿... لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وتتضمن هذه الآية تحذيراً للناس من مغبة ما يفعلون حتى يرجعوا إلى الإصلاح في الأرض وأن يتداركوا هذا الفساد الذي استشرى بما كسبته أيديهم وربما تعدوا على التوازن البيئي الطبيعي الذي أوجده الله في الأرض.

ومن صور الفساد البيئي الذي ظهر في البر والبحر تلوث التربة والماء والهواء وظهور التلوث الكيميائي ومن ذلك زيادة نسبة الكربون في الجو حيث تضاعفت نسبته أكثر من عشرة أضعاف منذ بداية الثورة الصناعية ونتج عن ذلك ما يسمى بالاحتباس الحراري فالغازات الناتجة عن المصانع والسيارات تحبس داخل الغلاف الجوي فترتفع درجة حرارته، فعندما تزيد نسبة ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الغازي للأرض فإنه يتجمع بالقرب من سطحها نظراً للكثافة النسبة العالية له، فيعمل كحاجز حراري يحيط بالأرض إحاطة كاملة مما يؤدي إلى خلخلة واضطراب المناخ وتحرك العواصف والأعاصير المدمرة.

ومنصور الفساد البيئي كذلك التلوث الإشعاعي وهو من أشد منتجات التقنيات الحديثة إفساداً لبيئة الأرض وفتكا بالإنسان والحيوان والنبات وينتج التلوث الإشعاعي عن تحلل المواد المشعة أو عن النفايات النووية التي لا تجد الدول المنتجة لها مثوى سوى قيعان البحار والمحيطات أو أراضي دول العالم الثالث.

وهذا الاعتداء على البيئة وعلى ما فيها من أحياء هو من معاني الإفساد في الأرض لأنه إفساد مادي ملموس يحدثه الإنسان بسوء سلوكياته وتصرفاته في مختلف بيئات الأرض وقد أحكم الله تعالى خلقها وضبط علاقاتها ببعضها كما وكيفا بإحكام واتزان بالقيمة لا يخلهما إلا إفساد الإنسان.

أسباب ظهور الفساد في الأرض

جرت سنة الله عزوجل في عباده أن يعاملهم بحسب أعمالهم، فإذا اتقى الناس ربهم عزوجل وأطاعوه ونفذوا أوامره وأقاموا شريعته منحهم بركات السماء وبركات الأرض وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ.. ﴾(١)

وقال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾(٢).

ومتى كان العباد مطيعين لله عزوجل معظمين لشرعه أسبغ عليهم النعم وأزال عنهم النقم، فإذا تبدل حال العباد من الطاعة إلى المعصية ومن الشكر إلى الكفر ومن الصلاح إلى الفساد حينئذ ينزل الله عليهم بلاءه فتمحق البركات وتحل اللعنات من رب الأرض والسماوات، وتلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا، قال تعالى:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾(٣).

يقول الإمام ابن قيم الجوزية – رحمه الله تعالى-:"ومن له معرفة بأحوال العالم

(١) سورة الأعراف: ٩٦.
(٢) سورة الجن: ١٦.
(٣) سورة النحل: ١١٢.

ومبدئه يعرف أن جميع الفساد في جوه ونباته وحيوانه وأحوال أهله حادث بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثه، ولم تزل أعمال بني آدم ومخالفتهم للرسل تحدِث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام والأمراض والأسقام والطواعين والقحوط والجدوب ، وسلب بركات الأرض وثمارها وبناتها وسلب منافعها أو نقصانها، أموراً متتابعة يتلو بعضها بعضا، فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ... ﴾ونزل هذه الآية على أحوال العالم وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل في كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة، بعضها آخذ برقاب بعض ، وكلما أحدث الناس ظلما وفجوراً أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم وأهويتهم ومياههم، وأبدانهم وخلقهم، وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجبأعمالهم وظلمهم وفجورهم، ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكثر مما هي اليوم كما كانت البركة أعظم، وقد روى الإمام أحمد بإسناده أنه وجد في خزائن بعض بني أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها: هذا كان ينبت أيام العدل وهذه القصة ذكرها في مسنده على أثر حديث رواه وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة ثم بقيت مناه بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم حكما قسطاً وقضاء عدلا، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله في الطاعون:"إنه بقية رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل). وكذلك سلط الله سبحانه وتعالى الريح على قوم سبع ليال وثمانية أيام، ثم أبقي منها في العالم بقية في هذه الأيام وفي نظيرها عظة وعبرة. وقد جعل الله سبحانه أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها في هذا العالم اقتضاء لابد منه، فجعل منع الإحسان والزكاة الصدقة سبباً لمنع الغيث من السماء

والقحط والجدب وجعل ظلم المساكين والبخس في المكاييل الموازين وتعدي القوى على الضعيف سبب الجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا، ولا يعطفون إن استعطفوا، وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في صور ولاتهم، فإن الله سبحانه- بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها، فتارة قحط وجدب وتارة بعدو وتارة بولاة جائرين، وتارة بأمراض عامة، وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون عنها، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزا لتحق عليهم الكلمة. والعاقل هو من يسير بصيرته بين أقطار العالم فيشاهده، وينظر مواقع عدل الله وحكمته، وحينئذ يتبين له أن الرسل وإتباعهم خاصة على سبيل النجاة وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون، وإلى دار البوار صائرون والله بالغ أمره، لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، وبالله التوفيق"(١).

وإذا تأملنا كلام الإمام ابن القيم – رحمه الله – وأسقطناه على واقعنا المعاصر وجدنا أن أهم أسباب ظهر الفساد في البر والبحر تتمثل في هذه الأمور:

١- الكفر بالملك الوهاب، وتكذيب الرسل الكرام عليهم أزكى الصلوات وأتم التسليم:

فقد أهلك الله –عز وجل- الأمم السابقة قوم نوح وعاد وثمود ومدين وقرونا بين ذلك كثيراً بسبب كفرهم بالله وتكذيبهم دعوة الله تعالى: يقول عز من قائل:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾(٢)

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، ٣٦٢/٤ – ٣٦٤.
(٢) سورة ق ١٢ – ١٤.

وقال تعالى:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾(١)

فهذه دعوة للتأمل في مصير الغابرين وهم ناس من الناس وخلق من خلق الله كانوا أقوى وأشد منا وعمروا الأرض أكثر منا وكانوا أكثر منا حضارة، وجاءهم الحق فلم يؤمنوا، وتعلقوا بالدنيا وحكموا غير شرع الله فمضت فيهم سنة الله في المكذبين ولقوا جزاءهم العادل، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، فالله يكشف للناس ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها بأعمال العباد، وأن فساد قلوب الناس وعقائدهم وأعمالهم يوقع في الأرض الفساد ويملؤها براً وبحراً بهذا الفساد فهؤلاء قوم سبأ أنعم الله عليهم بنعم عظيمة وقال لهم كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فلما أعرضوا عن شكر الله وعن العمل الصالح والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم، سلب الله منهم هذه النعم وأرسل عليهم السيل الجارف الذي يحمل العرم في طريقه وهي الحجارة فيحطم كل شئ.

٢- إتباع الهوى: وهو من أعظم ما يجلب الفساد في البر والبحر، فعندما يتبع الإنسان هواه، ويركض وراء شهواته وإشباع غرائزه الدنيا على حساب القيم والمثل العليا ويخضع لنداء أنا نيته وفرديته وعندما يجور على حقوق غيره ويرجح رغباته بمه دون أن يلتفت إلى غده، ينزل بذلك من مخلوق راشد يجعل شهواته تحت سلطان عقله إلى مجرد حيوان تسيره غرائزه،فلا عقل له ولا ضمير، وفي هذا يقول تبارك وتعالى

(١) سورة محمد : ١٠.

﴿... وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾(١)

وقال عز وجل: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٢)

وإنما كانوا أضل سبيلا من الأنعام لأمرين:

الأول: أن الأنعام لم تؤت ما أوتوا من العقل والإرادة والمواهب الروحية وبالتالي لم ينزل لها كتاب ولم يُبعث لها رسول.

والثاني: أن الأنعام قد أدت مهمتها المنوطة بها، فأدت درها ونسلها وحملت الأثقال وأثارت الأرض وسقت الحرث، أما الإنسان فرغم ما أوتي من الملكات والقدرات فلم يؤد رسالته التي كلف بها، فلا غرو أن يكون أقل من الأنعام -حينئذ- وأضل سبيلا منها.

وإنما أنزل الله كتبه، وبعث رسله ليخرجوا الناس من العبودية لأهوائهم إلى العبودية لله وحده، واتباع شريعته، وبغير هذا يحدث الفساد في الكون كله، كما قال تعالى ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ...﴾(٣) وقال تعالى لنبيه داود: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾(٤)، وقال عز وجل: ﴿...وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ...﴾(٥).

---

(١) سورة محمد: ١٢.
(٢) سورة الفرقان: ٤٣ ـ ٤٤.
(٣) سورة المؤمنون: ٧١.
(٤) سورة ص: ٢٦.
(٥) سورة القصص: ٥٠.

٣- التنافس على الدنيا والرغبة فيها والمغالبة عليها:- فعندما تدخل الدنيا القلوب تدفع بالإنسان دفعا إلى الفساد لكي يحقق مطامعه فيها ويكون ذلك مطية إلى الهلاك، فعن عمرو بن عوف الأنصاري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بالجزية، فسمعت الأنصار بقدوم أبي بعبيدة فوافوا صلاة الفجر، فلما صلى الرسول انصرف الناس فلقيهم النبي وابتسم وقال: أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قد أتى بالجزية من البحرين قالوا أجل يا رسول الله قال فأبشروا وأملوا ما يسركم . فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم"(١).

٤- الشح وهو حب المال وجمعه: فيحرص الإنسان على جمع المال من أي جهة ويمنع حق هذا المال ظالماً بذلك الفقراء والمساكين؛ قال ﷺ " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم"(٢)، وقال ﷺ مبينا الفساد المترتب على الشح: " إياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا"(٣) فالشح يؤدي إلى قطيعة الرحم والظلم والفجور، قال تعالى:﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾(٤).

٥- التقصير في واجب الأمر بالمعروف النهي عن المنكر: فلابد أن يقوم المصلحون بالأخذ على أيدي المفسدين حتى لا يهلك الجميع، وقد ضرب النبي ﷺ لذلك مثلا بقوله:" مثل

(١) صحيح البخاري ، باب ما يحذر من زهرة الدنيا ٢١/ ٢٨١.
(٢) صحيح مسلم، ١٦/ ٤٥٩، ومسند أحمد ٣٠/ ٣٦٩، من مسند جابر بن عبدالله.
(٣) سنن أبي داود ٢٦٩/٥، ومسند أحمد ١٧٢/١٤، من مسند عبدالله بن عمرو.
(٤) سورة الكهف : ٥٩.

القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أردوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا"(١) وقال ﷺ :"ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب"(٢).

وفي بيان أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين ومغبة تركهما يقول الإمام أبو حامد الغزالي :"فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله، وعلمه، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم .... "(٣).

٦- مخالفة أمر النبي ﷺ : يقول الحق تبارك وتعالى:﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ

(١) صحيح البخاري، ١٨٨/٩.
(٢) مسند أحمد، ٤٢/ ٣٢، من مسند جرير بن عبدالله.
(٣) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ٣٠٦/٢.

يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] وقال ﷺ: بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم"[2].

٧- الغلو في الدين والتنطع: قال ﷺ: " هلك المتنطعون"[3] وقال: "إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين"[4].

٨- الانحراف عن الميزان الكوني: ومن أسباب ظهور الفساد في البر والبحر انحراف الإنسان عن الميزان الكوني الذي أقام الله تعالى عليه هذا العالم، فقد خلق كل شئ فيه بقدر ووضع كل شئ فيه بحساب ﴿... وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[5] وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ..﴾[6] وقال جل شأنه: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[7] وآيات كثيرة دلت على أن كل شئ في هذا العالم مخلوق بمقدار وميزان، ومن أجلى الآيات وأظهرها دلالة على هذا المعنى آيات سورة الرحمن: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾[8] فأشارت هذه الآيات إلى الميزان

(١) سورة النور ٦٣.
(٢) مسند أحمد ٢٦٠/١١، من مسند عبدالله بن عمر.
(٣) صحيح مسلم، باب هلك المتنطعون ٢٢٣/١٧.
(٤) سنن النسائي ١٠/ ١٤٨.
(٥) سورة الرعد: ٨.
(٦) سورة المؤمنون: ١٨.
(٧) سورة الحجر: ١٩.
(٨) سورة الرحمن: ٥ ــ ٩.

الكوني الذي قرنه الله تعالى برفع السماء، ولا يظن ظان أن هذا الميزان هو الذي توزن به الأشياء المادية فهذا يقرن بالكيل ولا يقرن برفع السماء، وأمرت الآيات بإقامة الوزن بالقسط أي العدل، وإن الفساد في الأرض إنما يحدث بتجاوز العدل أو القسط والانحراف إلى الطغيان، وإن الخير كل الخير في إقامة القسط في كل شئ، وهو ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه، كما قال تعالى:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾(١)

فإذا خرج الإنسان عن هذا الحد، فطغى في الميزان أو أخسر فيه، فقد أساء وتعدى فإذا استمر في ذلك ولم يراجع نفسه، فقد استحق عقوبة الله وكان تجاوزه ذلك سببا في ظهور الفساد في البر والبحر.

طرق العلاج وكيفية الإصلاح

والآن بقي سؤال : ماذا عسانا أن نفعل لمقاومة هذا الفساد الذي استشرى خطره في البر والبحر؟ إن إنقاذ المجتمع من الفساد لا يكون إلا بالإصلاح والتربية وبناء الأفراد والأمم على الأخلاق القيم، ولعمر والله إن هذا هو منهج الأنبياء، في درء الفساد من الأمم وإقامة الفضائل فيها؛ ذلك أن الأنبياء ومن سار على دربهم هم المصلحون الحقيقيون، قال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام"﴿ ...إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ...﴾(٢).

(١) سورة الحديد: ٢٥.
(٢) سورة هود : ٨٨.

وأما الذي ينبغي على المصلحين إصلاحه:

(أولا): إصلاح الأمة في عقيدتها:

وذلك بغرس معاني العقيدة في النفوس بإفراد الله تعالى بتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية أما الأول، فالله هو رب العالمين القائم على شؤون خلقه من رزق وإحياء وإماتة وتدبير، وأما الثاني: فبإفراده وحده بالرهبة والرغبة والاستغاثة والدعاء والاستعانة، وعلى المصلحين كذلك نبذ كل مظاهر الشرك ومن صوره الاعتقاد في غير الله تعالى ودعاء غير الله والاستغاثة بغيره وتبارك وتعالى والتقرب لغيره.

(ثانيا): إصلاح الأمة في وعيها وفهمها:

إن الإسلام عقيدة وشريعة: عقيدة تتضمن الإيمان بالله والأنبياء والكتب والبعث والجزاء، وشريعة تتضمن، العبادات والمعاملات والآداب والأحوال الشخصية والعقوبات الجنائية، فلن يكون العبد مسلما إلا أن يعتقد شمولية الإسلام لكل حياته وسلوكه قال تعالى:﴿ ...مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ...﴾(١).

(ثالثا) إصلاح الأمة في الأخلاق والسلوك:

ويكون ذلك بإصلاح القلوب؛ فإن القلوب هي موضع نظر الحق سبحانه وتعالى للحديث:"إن الله لا ينظر إلى صوركم لا إلى أجسامكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"(٢)، فلا بد من تطهير القلوب من الغل والحسد والحق والانتقام والتشفي والعجب.

وعلى المصلحين كذلك بناء الشخصية الإسلامية المتكاملة وهذا لا يتم إلا ببناء العقيدة والوعي والأخلاق والسلوك وأن الاقتصاد على بعض هذه الجوانب فقط يجعل البناء هشا.

---

(١) سورة الأنعام: ٣٨.
(٢) صحيح مسلم، ١٦/ ٢٤٠.

إن الفساد نازع من نوازع النفس البشرية ووسيلة من وسائل الشيطان لإلحاق الضرر بالفرد والمجتمع، والعناية ببرامج التربية والتوعية وتعزيز نماذج القدوة الصالحة على أرض الواقع كل ذلك كفيل بإصلاح الإعوجاج في النفس وفي السلوك.

فالتربية – لاسيما في المحيط الأسرى – هي خير عاصم من الفساد، ومسئوليتنا أمام أبنائنا وأهلينا كبيرة فهي مسئولية إنقاذهم من المعاصي والفساد وإنقاذهم من النار التي يجب الفرار منها بالنفس والأهل والأولاد قال المناوي – رحمه الله-: " لأن يؤدب الرجل ولده عندما يبلغ من السن والعقل مبلغا يحتمل ذلك بأن ينشئه على أخلاق المؤمنين ويصونه عن مخالطة المفسدين ويعلمه القرآن والأدب ولسان العرب ويسمعه السنن وأقاويل السلف، ويعلمه من أحكام الدين ما لا غنى عنه ويهدده ثم يضربه على نحو الصلاة وغير ذلك: خير له من أن يتصدق بصاع؛ لأنه إذا أدبه صارت أفعاله من صدقاته الجارية وهذا يدوم بدوام الولد والذرية، كما أن الأدب غذاء النفوس"(١).

(١) فيض القدير ، الحافظ المناوي: ٢٥٧/٥.